على الرغم من الإجلال الصامت الذي كان رفاق «ماني» جميعاً يحيطونه به فإن وجوده لم يكن قطّ مُثْقِلاً. وإذا كان ابن (بابل) يطلب من تلاميذه الأقربين، من «مختاريه»، من أولئك الذين سيُدْعَون يوماً «الكاملين»، أن ينصرفوا إلى الفن، إلى التعليم، إلى التأمّل، وأن يتخلّصوا من كلّ ملكيّة، فإنّه كان لا ينى يردّد أن بالإمكان المجيء إليه من دون التخلّي عن العمل والممتلكات، ومن دون التحوُّل عن العادات وفقط العيش. شريطة عدم إيذاء الكائنات وعدم ترك الحكماء يموتون.

وذات يوم أبدى أحد المعارضين جزعه بقوله:

ـ على هذا فإنه سيكون في ديانتك أخلاقيّتان؟.

لم يفكر «ماني» في إنكار ذلك.

ـ هناك طريق وعْر يسلكه الذين يَصْبون إلى الكمال. وطريق ممهَّد للبشر كافّة.

ـ ولكن إذا كان الطريقان يؤدّيان إلى الخلاص فما هي الامتيازات التي أحصل عليها باختياري الطريق الأصعب؟

ـ إذا لفظتَ كلمة «امتيازات» فمعنى ذلك أنك اخترت سلفاً.

كان الأتباع يتضاعفون على مرّ المراحل، ولا سيّما في المدن بين الحِرَفيين والتجّار والغرباء والمُهجَّنين. ولا ريب في أن «ماني» كان يخلب الذين يعيشون في عزلة داخل نظام الأديان والطوائف الصارم، والذين يعانون من كونهم مُتَجاذَبين بين مختلف الانتماءات، والذين لم يكونوا يَرَوْن أنفسهم جالسين منذ الأزل وإلى الأبد على طنفسة وثيرة من الامتيازات.

ومع ذلك فإن انتشار تعاليمه كان أبطأ ما يكون في أقلّ الطبقات ثراء. وعندما كان يقول: «لا تقتلوا الشجرة، لا تجرحوا الأرض!» فكيف كان من الممكن أن يحصل على انخراط الفلاحين بحماسة؟ وربح إلى جانبه على العكس من ذلك بعضاً من أبرز ممثّلي طبقة المحاربين. مثل «فيروز» و«مهرشاه»، وهما